أوراق من دفتر سجين
الورقة الثانية

رائع.. يا أبا حفص..!! قريباً سأعلمك كيف تصطاد الصقور

بقلم الشيخ؛ أبي محمد المقدسي

لحظات وينطلق آذان المغرب في اول آيام رمضان ..

إنها لحظات ذات شجون ، وفي هـذا المكـان المنقطـع عن الدنيا .. إنه رابع رمضان يزورنا في المحنة ..

وقد عودت النفس في مثل هذه الأوقـات ، أن أشـغلها بالـــذكر ، أو أي أمـــر نـــافع ، وأن لا أســـلمها للشـــجون والذكريات .. خصوصاً اليوم ، وفي مثل هذه اللحظات ..

فإن مشهداً في مخيلتي ، لا ينفك يفجئني في أول يوم ، من كل رمضان في كل عام..

إنـه مشـهد الصـغار ، يلتفـون حـول مائـدة الإفطـار ينتظرون الآذان .. وأمهـم عجلـة تعمـل بجـد ، ذهابـاً وإيابـاً تجهز لهم إفطارهم، كلهم لـم يبلـغ سـن التكليـف.. لكنهـم جميعـاً يتحمسـون للصـيام .. خصوصـاً فـي أول أيـام هـذا الشهر الكريم ..

فهكذا الشأن مع كل جديد .. يتلقاه ويتلقفه الصـغار !! غالباً .. بشوق وشغف وحماس ..

نعـم .. ولكـن الحمـاس وحـده لا يكفـي زاداً لمواصـلة الطريق .. أليس كذلك ؟

أمد بصري من نافذة سجني الصغيرة ، لألمح جزءاً من منظر الغروب المهيب في صحراء قاحلـة .. الشـمس تجـر ذيولها بدلال عجيب .. وبطئ سريع .. تـؤذن بـالغروب .. آه ما أقصر الحيـاة .. سـرب مـن الطيـور فـي الأفـق الأحمـر القاني ، يتهادى عائداً إلى أعشاشه حيـث فراخـه ، قبـل أن يفجأه الظلام ..

يبادر إلى ذاكرتي رغماً عني قول المعتمد بن عباد في سجنه :

ألا عصم الله القطا في فراخها فإن فراخي خانها الماء والظل

إنها طبيعة البشر وإنسانيتهم ، وآثار الرحمة التي زرعها الله في قلوبهم ، يتراحمون بها..

تغلب على المرء في بعض اللحظات ، مهما كان جلداً صلباً صبوراً ..

أنفض رأسي من هذا .. وأعرض عنه صفحاً .. مستذكراً بعضاً من أبيات كتبتها على جدران زنزانتي الصغيرة في سالف الأيام ؛

أخي إننا ما أسأنا الظنون بوعد الإله القوي المتين
وما زادنا القيد إلا ثباتاً وما زادنا السجن إلا يقين
وما زاد تعذيب إخواننا وقتل الدعاة ولو بالمئين
سوى رفع راية إيماننا وإظهار توحيد حق ودين
لمرضاة رب ونصرة دين تطيب السجون وتحلو المنون
لمرضاة رب عزيز كريم تهون الحياة وكل البنون

تقرع ذاكرتي ، في هذه اللحظات ، كلمات صغيري (عمر) يناجي أمه في رمضان سبق :

- (إن أبي شيخ جيد ، وأنا أحبه ، وأفخر به .. ولكننا نريده معنا هنا ، لا في السجن !!)

- وتبادر أمه ، بتذكيره ببعض معالم الطريق ، فكأني أسمع صدى كلماتها يتردد في هدأة المساء :

- ما هذا يا عمر ؟ ما الذي تهذر به .. ؟

ألم أقل لك مراراً أن أباك إنما سجن لأجل دين اللــه .. ولأجل دعوته وتوحيده..

ألم أخبرك بقصة إبراهيم عليـه السـلام ، وكيـف ألقـي لأجل دعوته في النار ؟

وقصة موسى .. وعيسى وأصحاب الكهف .. وأصحاب الأخدود ..؟

أه يا عُمير .. لا بد وأنك تـ ذكرت أعيـاداً مضـت .. كنـت فيها معكم وبينكم ..

فأين قولك لأمك الذي نقلته لي في بداية المحنـة ، رداً على من انتقد نهجي : (أنا أحب أن أكون مثل أبي..وعندما اكبر سأفعل مثل أبي .. وسأجاهد الطواغيت ..)

فما بالك اليوم ..؟ هل استطولت الليالي والأيام ..؟

فإنهــا يــا صــغيري أول الطريــق ..! أم أن كاهليــك الصغيرين قد استثقلا المحنة ..؟

أم تـراك اسـتبطأت النصـر والفـرج ..؟ واسـتوعرت الطريق ؟

لا زلت أتخيل بريق عينك ، وأنت تحملق في أعداء الله في إحدى مداهمتهم للبيت بعد منتصف الليل ، حيـن أفقـت من تلك الليلة الشـاتية مـن فراشـك فزعـاً علـى أصـواتهم القبيحة ، وقد انتشروا في أنحاء البيت يبعثرون كل شـيء ، ويفتشون كل زاوية .. وسـألك علـج منهـم بصـوت أجـش : (أين ابوك ..) ؟

فأجبته دون تـردد ، وانـت لا زلـت قاعـداً فـي فراشـك تفرك عينك : (لا أعرف..)!..

وكنت ليلتها تعرف جيداً أين أبوك ..

ولا زلت يـا أبـا حفـص .. أذكـر نظراتـك – لـم انسـها – وأنت تحدق بهم في آخر ليلة فارقتكم فيهـا ، ليلـة اعتقـالي قبل أربع سنين ، وقد وضعوا القيد في يدي وأحاطوا بي من كل جانب يدفعوني ويتناولوني بهراواتهم وأعقاب بنادقهم ، فالحظك في ظلام الليل على الشرفة تنظر إلي وأنا أنــادي

: (لا تخشوهم .. لا تخافوا منهم .. هـؤلاء حشـرات .. إنهـم ذباب) وأتذكر جيداً كيف رسخ ذلك في ذهنـك وانطبـع فـي ذاكرتـك فحيـن رأيتنـي بعـد سـتة شـهور ، يـوم نقلـت مـن زنازنهم إلى السجن وذكرتك بتلك الليلة ، قلت علـى فـور : (نعم أتذكرها جيداً يـا أبـي .. كنـت تقـول : لا تخـافوا منهـم إنهم حشرات إنهم ذباب)

ولا غرابة ان ترسخ فـي ذهنـك الصـغير هـذه الكلمـات بالتحديد ، من بين كثير من اللغط الذي ملأ تلك الليلة الليلاء ..

وذكرتك يومها ببيت لابن القيم سطرته لـك فـي بعـض رسائلي في الزنزانة :

لا تخش كثرتهم فهـم همج الورى وذبـابه أتخـاف مـن ذبان

أتذكره يـا عميـر .. ؟ لقـد كـان اعـداء اللـه يشتاطون غيظاً حين يقرؤونه .. وكنت احب تـذكيرك بـه دائمـاً رغمـاً عن انوفهم ..

فما بالك اليوم ، تتعجل كوني بينكم ..؟

لا عجب في ذلك .. فلا زلت بعد صغيراً ..

وهذه الطريق طويلة محفوفة بالمكاره ، يتساقط على حافتيها الكبار ..

ويترجل في محطاتها الكثيرون ..

ألم أقل لك ولغيرك مراراً ؛ إن عُمر محنتنا جـد قصـير مقارنة بمحن إخواننا في غير هذه البلاد ..

إنها البداية يا صغيري .. وهي أول الخطوات في طريق هذه الدعوة الغالية ، والسلعة النفيسة ، التي لا يقـوم بهـا ، ويدفع ثمنها إلا الرجال..

((رجال صـدقوا مـا عاهـدوا اللـه عليـه * فمنهـم مـن قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ..))

يا سلعة الرحمن لست بل أنت غالية على

رخيصة الكسلان
يا سلعة الرحمن لــولا حـجبت بكـل مكاره الإنسان
انـها
مــا كــان قــط مــن وتعطـلت دار الجزاء الثاني
متـخلف
لكــنها حجــبت بكــل ليصد عـنها المبطل المتواني
كريهة
وتنالهــا الهمــم الــتي رب العـلى بمشـيئة الرحمن
تسـموا إلى

وما أحلى كلمات ابن القيم – والشعر له – حين يصـفها بقوله :

(تـالله مـا هزلـت فيسـتامها المفلسـون ، ولا كسـدت فيبيعهـا بالنسـيئة المعسـرون .. لقـد أقيمـت للعـرض فـي سوق من يزيد ، فلم يرضـى لهـا ثمـن دون بـذل النفـوس ، فتأخر البطالون ، وقام المحبون ينظـرون ؛ أيهـم يصـلح أن يكون ثمناً ؟ فدارت السلعة بينهم ، ووقعت في يـد ((أذلـة على المؤمنين أعزة على الكافرين)) . ولما كثر المـدعون المستشرفون . طولبوا بإقامة البينة علـى صـحة الـدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعـى الخلـي حرقـة الشـجي ، فتنوع المدعون في الشهود ، فقيل: لا تقبـل هـذه الـدعوى إلا ببينة : ((قل إن كنتم تحبون الله فـاتبعوني يحببكـم اللـه))

فتأخر الخلق كلهـم ، وثبـت أتبـاع الحـبيب فـي أفعـاله وأقــواله وأخلاقــه .. فطولبــوا بعدالــة البينــة بتزكيــة ؛ ((يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائـم)) فتـأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون ..

فقيل لهم : إن نفوس المحبين وأموالهم ليسـت لهـم ، فهلموا إلى بيعة : ((إن الله اشترى من المؤمنين أنفسـهم وأموالهم بأن لهم الجنة))

فلما عرفوا عظمة المشترى ، وفضـل الثمـن ، وجلالـة من جرى على يديه عقد التبايع عرفوا قدر السلعة ، وأن لها شـأناً ، فـرأوا مـن أعظـم الغبـن أن يبيعوهـا بثمـن بخـس ، فعقدوا معه بيعة رضوان بالتراضي ، من غيـر ثبـوت خيـار ، وقالوا : (لا نقيلك ولا نسـتقيلك) فلمـا تـم العقـد وسـلموا المـبيع ، قيـل لهـم : مـذ صـارت نفوسـكم وأمـوالكم لنـا ؟ رددناها عليكـم أوفـر مـا كـانت ، وأضـعافها معهـا، .. ((ولا

تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون *فرحين بما آتاهم الله من فضله)) .. فحمد القوم عند الوصول سراهم .. وشكروا مولاهم على ما أعطاهم .. فعند الصباح يحمد القوم السرى ..) أهـ .

لا بد أن تعي هذا جيداً يا بني ، وتحفظه ، لتعرف حقيقة هذه الطريق .. وبعض تكاليفها ..

فلا تستطولها بعد اليوم .. أو تستوعرها ما حييت ..

تذكرتك في زيارتك الأخيرة ..

يومها كنت انظر إلى عينيك بشغف وهما تبرقان فرحـاً وسروراً .. على شبك الزيارة .. وانـت تقـول : بـالأمس يـا أبت خرجت مع شيخي إلى الصيد .. وأصطدت حمامة لأول مرة بالبندقية ..

نعـم يـا أبـي بالبندقيـة .. اصـطدت حمامـة لأول مـرة بالبندقية ..

رائع يا عمر ، ممتاز ، الآن جاء دور الصقور ..

قريباً ان شاء الله ، سأعلمك كيف تصطاد الصقور ..

ينطلق الآذان ..

تنقطـع الـذكريات ..تـترقرق دمعـة غاليـة .. أمسـحها بسرعة .. أتمتم :

اللهم إن هذا إقبال ليلـك .. وإدبـار نهـارك .. وأصـوات دعاتك .. فاغفر لي ..

أبو محمد – سجن سواقة
مساء الأول من رمضان سنة 1417
من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام

منبر التوحيد والجهاد

* * *

tth
tth
tth
tth
tth